

لغة مسلمي الأندلس

بلم الاب لامن البسوي

باي لغة كان يتغام مسلمو الأندلس ؟

سؤالٌ ، قد يتسرع الكثيرون من قرآئنا الكرام فيجيبون عنه بان لغة مسلمي الأندلس كانت العربية . ولم هذا التسرع في الحكم ، ولا شيء . يُجيب المسلمون على التكلم بذلك اللسان ، بل لا شيء . يجبرهم على فهمه ؟ ونحن اذا دققنا البحث ، لا نعدم بلاداً اسلامية تتكلم اكثرية سكانها بلغة غير العربية . لناخذ مثلاً بلاد مراکش ، بل بلاد الجزائر عنها ، فترى لكثرة اهليها تتغام بلسان بربري . على انه قد يعترض علينا احدٌ فيقول : وماذا تفعل بأداب الأندلس العربية ؟ فان ابن عبد ربه ، وابن رشد ، وكثيراً غيرها من كتاب الأندلس ، قد وجدوا وعاشوا في تلك البلاد ، ولا سبيل الى انكار ذلك . ولقد كتبوا مؤلفاتهم باللغة العربية ، وهم انما فعلوا ذلك لاعتبارهم ان في معاصرتهم ووطنيتهم من يقرأ مؤلفاتهم ويفهمها .

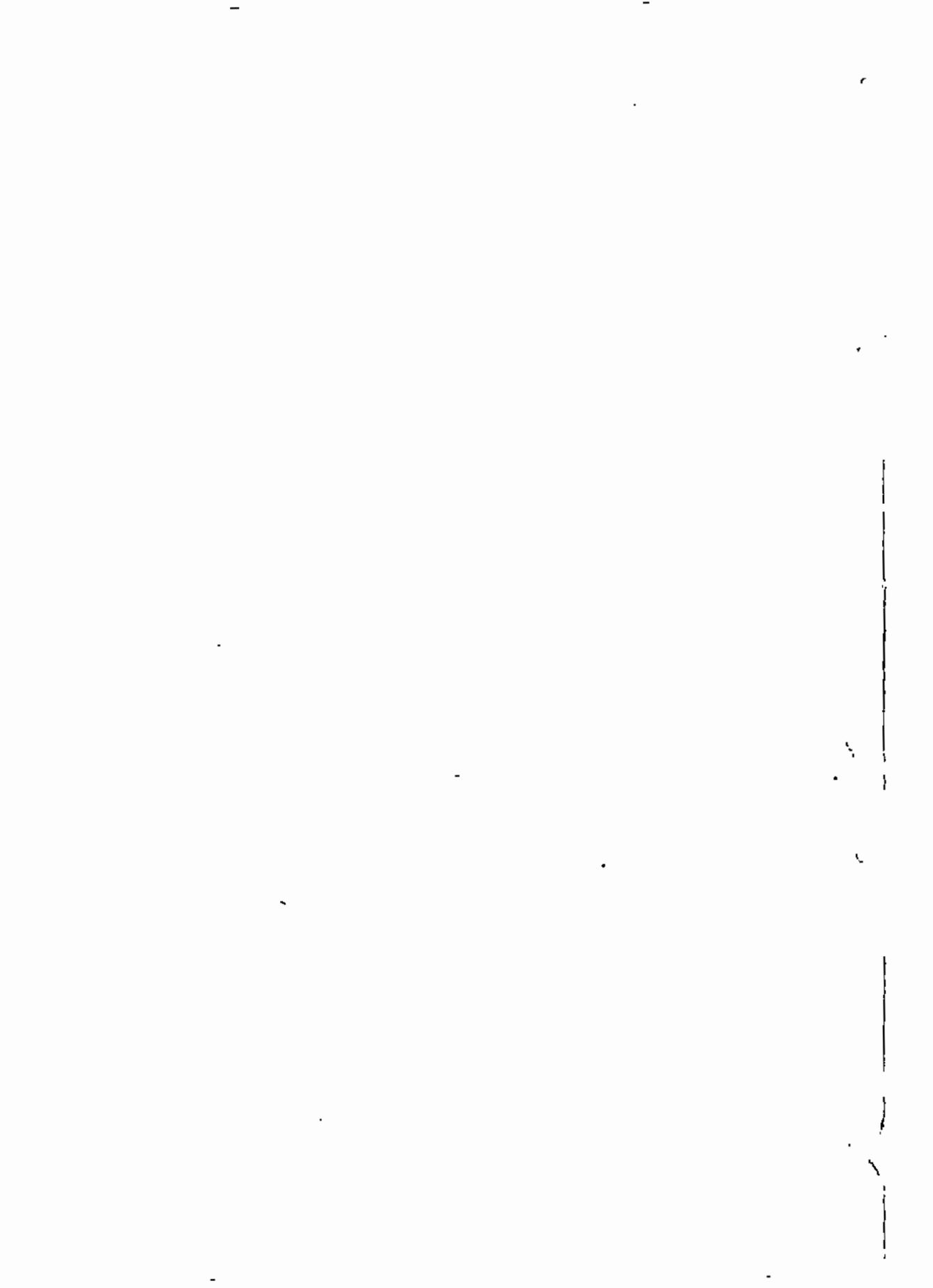
ولكن لا يصعب دحض هذا الاعتراض ، وهو لا يختص باسبانية الاسلامية وحدها ، اذ ان هناك كثيراً من البلدان استعملت لساناً مزدوجاً يتفرع ليس فقط من لهجتين مختلفتين للغة واحدة ، بل من طائفتين متباينتين من اللغات . فكان في كل من تلك البلدان لغة رسمية تستعملها الحكومة ، ولغة ثانية يستعملها الشعب وافراد الرعية في معاملاتهم . تلك كانت حالة سورية قبل الفتح العربي ، اذ كانت لغة البلاد السريانية ، او لهجة من الآرامية ، بينما كان مؤلفو ذلك العصر ، وهم سوريون ، ينشرون كتبهم باليونانية . وكذلك القول عن الرُّوم المكتشفة في بلادنا فان اكثرها كان مكتوباً باليونانية او باللاتينية . ولم تنحصر اللغة اليونانية في سورية بكونها اللغة الرسمية ، كما كان اللسان التركي على عهد العثمانيين ، بل كانت ايضاً لغة المناظرات والتأليف العلمية

واننا نتحقق الحالة ذاتها في اوربة ، منذ القرون الوسطى حتى القرن السادس عشر ، حيث نرى في اكثر البلدان الاوربية كفرنسة ، وايطالية ، وانكلترة ، والمانية ، جميع العلماء ممن آباء الكنيسة حتى اساتذة الجامعات المختلفة ، ينشرون مؤلفاتهم ، ويتناظرون باللغة اللاتينية. ومنشوراتهم هذه تملأ المكاتب الضخمة في عصرنا . وكذا القول عن لغة المعاملات الإدارية ، والنقوش على النقود حتى ان انكلترة تحتفظ الى يومنا هذا بنقش لاتيني على ليرتها . فهل ينتج من هذه الآثار والوثائق الصديدة ان الشعب ، في كل تلك البلدان ، كان يتكلم اللغة اللاتينية او يفهمها ؟ لا لعصري ا وليس احد يزعم هذا الزعم !

* * *

جال في خاطرننا ذلك السؤال عن لغة مسلمي الاندلس بينما كنا نتصفح مجموعة اسبانية وصارتنا مؤخرًا ، وهي غاية في الاتقان . وذلك انه في السنة الفائتة ، احتفل علماء الاسبان بيونيل مستشرقهم الشهير خوليان ريبيرا إي تاراغو (Julián Ribera y Tarrago) بمناسبة مرور اربعين سنة على مباشرته التعليم العالي (١٨٨٧-١٩٢٧) . وبعد تلك الحفلة قام اصحابه وتلاميذه العديدون بنشر مقالاته المتفرقة ، في مجلدين كبيرين (١) . وقد كتب مقدمة تلك المجموعة المستشرق الاسباني المعروف ، الاستاذ اسين پلاسيوس (Asin Palacios) فبحث فيها عن خدمات المحتفل به المتمددة في سبيل العلم والعرفان . وقد تأسف الاستاذ اسين على ان اعمال مسترقي الاسبان تكاد تكون مجهولة كل الجهل . ونحن نرى تأسفه في محله لاسيا فيما يخص بلادنا ، لان جميع الذين اهتموا بدرس الاندلس ، من مؤلفينا المصريين ، جهلوا تماماً اعمال مسترقي الاندلس ، ويكفيينا ان نذكر اسمي البتاتوني والنصولي وتقيس عليها باقي مؤرخي عصرنا اما فيما يتعلق بالسؤال عن لغة مسلمي الاندلس ، فهذا بالاختصار رأي الاستاذ

١) DISERTACIONES Y OPUSCULOS, Madrid, Est. Maestre, 1928. Tome I, CXVI, 637; Tome II, 796 pp.





فولباده رييرا
المشرق الاسباني الكبير

رييرا ، ونحن نحيل المطالع على المؤلف نفسه حيث يرى البراهين الوافية (١) :
لم يكن بين المسلمين الذين قاموا بفتح الاندلس الا القليل من العنصر
العربي الخالص ، فكان منهم قواد السكر واصحاب الرتب فيه ليس غير .
اماً اكثرية الجيش فكانت مولدة من البربر والافريقيين

وفضلاً عن ذلك فان عدد العرب الأتقاح كان ينقص بأطراد متواصل ،
بسبب الحروب الاهلية التي اثارها عوامل المنافسة والطمع . فاذا تقرر هذا ،
رأينا انفسنا مدفوعين الى الاقرار مع الاستاذ رييرا : ان نسبة العنصر العربي ،
او الشرقي ، في تكوين الشعب الاسباني المسلم قليلة جداً . ومن ثم فلا شيء
يُميّز لنا نعت مسلمي الاندلس بالعرب ، خصوصاً منذ الجيل الرابع بعد الفتح
الاندلسي

وقد كانت لغة هؤلاء الناس في علاقاتهم العادية اللغة الاسبانية . حتى انه
في داخل الأسر الاسلامية القليلة ، التي كانت تُفأخر ياصلها العربي ، لم يكن
يجري التفاهم بالعربية بل بالاسبانية . فترى على الجلمة انه كان في الاندلس
لثان جارتان مآ : الاسبانية ، وهي لغة المعيشة العلية والحياة اليومية ؛ والعربية
وهي اللغة الرسمية ، لغة الحكومة ، والعقود ، والجامع ، والمدرسة . وان هذا
الازدواج في اللغة لا يختص بالاندلس فحسب ، بل زاه في اكثر البلاد التي
افتتحتها العرب ، والتي احتفظ سكانها باناعتهم الوطنية القديمة ، كاللسان البربري
في مناطق المغرب ، والفارسي والتركي في المشرق . ولم يتلاش واحد من هذه
اللسن امام اللغة العربية . لان الانسان ، مها تعاضت الطوادي الخارجية
عليه ، يفضل دائماً ان يتفاهم مع بني قومه بما يدعوه الاورييون « بلغة الام » ،
بتلك اللغة التي تملها ، وهو لا يزال حياً يتنقل في حضن امه

وهناك سبب ظرفي غاية في الاهمية ، كان يحول دون انتشار اللغة العربية
في الاندلس ، وهو عدم وجود آهات عربيات ، حتى في الأسر العربية الاصل .
وذلك ان الفاتحين من العرب لم يستصحبوا نساء من عنصرهم . فأجبروا على

١) *Dissertaciones* : I, 10 etc...

الترواح بنساء اجنبيات عنهم . ولا يُستثنى احد من هذا الامر ، حتى ان افراد الأسرة الاموية المالكة في قرطبة كانوا يتخذون لهم نساء من الاسبانيات ؛ وقد حسب الاستاذ ريبيرا ان هشام الثاني (٧٩٦-١٠٠٩) ، وهو الخليفة الاموي العاشر في الأندلس ، لم يكن في عروقه إلا جزء من الف من الدم العربي . وفي جميع الأسر الاسلامية كانت النساء والحواري اجنبيات واكثرهن من العنصر الاسباني . فلم يكن بالامكان التغام في تلك الأسر إلا بلسان الاسبان الذي ظل مستعملاً جارياً على ما كان عليه قبل الفتح . ولنا من شهادات مؤرخي المسلمين انفسهم البراهين المتعددة على ذلك . فإن ابن خزم (١) يذكر ، كحادث نادر غريب ، وجود قبيلة عربية في ضواحي قرطبة لم تزل تحافظ على عاداتها القديمة فلا تتكلم الا اللسان العربي ، وهو يلاحظ ان افرادها من رجال ونساء ايضاً ، لا يفهمون اللغة الاسبانية . فدى من هذه الملاحظة ان الكاتب يقر ضمناً انه ، حتى في الاسر التي كانت تجاهر باصلها العربي ، كانت اللغة الاسبانية جارية في التخاطب والتغام .

هذا ولنا برهان آخر في قول كاتب ثانٍ من بلاد الأندلس وهو الحُثني . فانه يروي حادثة جرت على عهد عبد الرحمن الثاني (في النصف الثاني من القرن التاسع) اذ اقيمت دعوى على « قاضي الجماعة » في قرطبة . وقد حُكم على القاضي المذكور ، بفضل شهادة أداما احد سكان قرطبة ، وكان شيخاً جليلاً « مقبول الشهادة » ومشهوراً في العامة بالخير ، وحسن المذهب . فهو اذن من افاضل المسلمين . إلا انه كان اسباني الاسم ، يدعى « يناسير » ، ولم يكن يمكنه الإفصاح إلا باللغة الاسبانية . وقد قال عنه الحُثني المذكور (٢) : « كان اعجمي اللسان » أدى شهادته « باللفظ الأعجمي » اي الاسباني . وقد نظرت محكمة قرطبة في دعوى ثانية من هذا النوع ، جرت فيها جميع المرافعات باللغة الاسبانية (٣)

(١) ابن خزم : جمهرة انساب العرب ، ص : ٢٢٠ ، من مخطوطة تونس

(٢) الحُثني : كتاب القضاة بقرطبة (طبعة Ribera ، ١٩١٣) ص : ٩٦

(٣) الحُثني : الكتاب المذكور ، ص : ١٣٩

ثم ان مسلمي اسبانية كان من عاداتهم ان ينتصوا عظام رجالهم بالقباب وكنتى بيده عن الاعتبار ، وقصدهم في ذلك نقد اعمالهم ، او التهكم على بعض صفاتهم . ولما كانت كل هذه النعوت والالقباب متخذة من اللغة الاسبانية - من امثال « كيار : Gamello » (جل) « وبطرا سكا : Petra Seca » (الحجر الجاف) وهو لقب احد مشاهير مجلاتهم - جاز لنا ان نستنتج ان الشعب الذي كان يجتمع هذه الالقباب كان يتعمل اللسان الاسباني في معاملاته اليومية وعلاقاته العادية

وقد تحقق امر ازدواج اللغة بين مسلمي اسبانية الجغرافي السوري المشهور المقدسي (من اواخر القرن العاشر) ، فقال في كتابه « احسن التقاسيم » واصفاً الاندلسيين الذي شاهدتم بكثرة في مكة ، اثناء الحج (ص : ٢٤٣) : « لقتهم منغلقة مخالفة لما ذكرنا في الاقاليم ، ولهم لسان آخر يقارب الرومي . » وهذا اللسان الآخر هو اللسان الاسباني ، الذي « يقارب الرومي » بالحقيقة ، كما قال المقدسي ، لانه مشتق من اللاتينية

فكل هذه البراهين المتعددة تؤيد نظرية الاستاذ ريبيرا في انه كان لمسلمي الاندلس لغتان مختلفتان كما ذكرنا

ونحن نحتم كلامنا واجين من الله ان يمده ستين عديدة حياة الاستاذ ريبيرا ، فيتابع باجتهاد واتقان ابحاثه النفيسة . هذا ما نتمناه باسم « المشرق » للعالم الاسباني الكبير . امأ كتابنا الذين يهتمون بالاندلس وتاريخه وآدابه فاننا ننصح لهم ان يتفيدوا من اعمال مستترقي الاسبان ، ويسيروا في انوار معارفهم ، لان اهل البيت ادري بما فيه !

